



ملحمة " تيماشورا " في ذكراها العشرين ، متى يشبه ليل القاهرة بارحة بوخارست !؟

بقلم: رائف محمد الويشي

19 ديسمبر 2009

خاص: موقع إنقاذ مصر:---

تمر هذه الأيام الذكرى العشرون لرحيل دكتاتور رومانيا نيكولاي تشاوشيسكو ... لن ينسى أحرار العالم هذا الطاغية بسبب ما تركه في نفوس الشعب الروماني من خوف ويأس من قدوم غد أفضل ..

أذكر جيدا هنا في أمريكا أنني كنت ألتقي في أواسط الثمانينات برومانيين وأتحدث معهم عن تشاوشيسكو فكانوا يغيرون مجرى الحديث إلى شيء آخر .. إذن لقد أوصل الدكتاتور الرومانيين – حتى أولئك الذين يعيشون خارج رومانيا – إلى حالة من الرعب عندما كان يتعلق الأمر بالحديث عنه ..

سيطر الحزب الشيوعي الروماني على رومانيا عقب اجتياحها من قبل السوفييت في 1945 وهم في طريقهم لإسقاط هتلر في برلين .. كان تشاوشيسكو المولود في عام 1918 أحد الوجوه المعروفة في مدينته – أولتينا - بميوله الشيوعية منذ الثلاثينات ودخل الاعتقال ست مرات وكان آخرها في 1944 حيث تمكن من الهرب من سجنه في أغسطس من نفس العام .. كان كل ضباط الشرطة في مدينته يعرفونه جيدا وأطلقوا عليه حينها " الداعية الشيوعي الخطر " .. تعرفت عليه زوجته إلينا في الثلاثينات وكانت مثله من ريف الضواحي الرومانية وأصبحت معه عضوه نشطة في حركة الشباب الشيوعي منذ ذلك الحين..

تقلد تشاوشيسكو منصب سكرتير الحزب الشيوعي في أولتينا بعد سيطرة الحزب الشيوعي على رومانيا عقب غزوها من قبل السوفييت وأخذ يتدرج في منصبه حتى تولى زعامة الحزب الشيوعي الحاكم في مارس 1965 .. أحكم قبضته على البلاد عقب توليه السلطة وزاد من قوة الأجهزة الأمنية – السيكوريتات - التي كانت تعرف ببطشها الشديد .. أنشأ المصانع العديدة في البلاد وطبق سياسة شديدة من النقش على شعبه على الرغم أن حياته كانت مليئة بالبذخ والترف وتتناقض مع حياة شعبه الذي كان يعيش في برد الشتاء القارص بلا تدفئة ويقف في طوابير لساعات طويلة لشراء الخبز ..

اتبع الدكتاتور منذ العام 1982 سياسة هدفها تصدير كل ما ينتج داخل البلاد للحصول على العملة الصعبة بهدف التخلص رومانيا من عبأ الدين الأجنبي .. لقد أوشكت رومانيا على الدخول في مجاعة في تلك الفترة بسبب تصدير كل المحصول الغذائي إلى الخارج عدا عدة جرامات من الطعام في اليوم يتسلمها كل فرد من خلال بطاقة الغذاء، كما زادت الأمراض بسبب تصدير كل الدواء..

لقد تخلصت رومانيا من ديونها في حياة تشاوشيسكو ، لكن الثمن كان باهظا لأن المواطن كان جائعا ومريضا وواجه برد الشتاء وسار في الثلج لمسافات طويلة ، والأهم من ذلك كله إهانته وإذلاله في وطنه ..

لم يكن تشاوشيسكو يقبل بأي انتقاد لسياسته ولو عفوي من مرافقيه كما لم يكن يشعر بأي رحمة تجاه معارضيه الذين أضطر الكثير منهم إلى الهرب خارج البلاد للنجاة بحياتهم ..

كانت أجهزة إعلامه تضعه في مراتب العباقرة الذين يجود بهم الزمان كل عدة قرون .. لقد أصيب الدكتاتور بجنون العظمة في سنواته الأخيرة فأطلق على نفسه ألقابا كثيرة كان منها منار الإنسانية المضيء والملهم ودانوب الفكر – نسبة إلى نهر الدانوب – والقائد العظيم ، كما ساهم المنافقون المنتفعون من حوله في إعطائه المزيد من تلك الألقاب فأطلقوا عليه الإسكندر الأكبر الجديد ومنقذ الشعوب ،

في مارس 1989 وجه ستة من أعضاء الحزب الشيوعي الروماني خطابا إلى تشاوشيسكو يدعونه فيه إلى مراجعة السياسات الاقتصادية والاجتماعية المتبعة بالبلاد ، أطلق على هذا الخطاب حينها بـ " خطاب الستة " .. تمكنت الإذاعات الغربية من الوصول إلى نص الخطاب ونقلت فقرات منه على الهواء .. سخر تشاوشيسكو من الخطاب واتهم من قاموا بكتابته بالرجعية والعمالة للغرب ..

في نوفمبر 1989 أعاد الحزب الشيوعي الروماني انتخاب تشاوشيسكو كزعيم للحزب لمدة خمس سنوات وكان ذلك إنذارا بأن الطوفان على وشك أن يطل برأسه من مخبئه ..

في 16 ديسمبر قامت قوات الأمن في مدينة " تيماشورا " القريبة من الحدود المجرية باعتقال رجل من بسطاء القوم يسمى " لازلو توكيس " .. كان قسا للأقلية المجرية بالمدينة لكن أجهزة الأمن اتهمته بتحريض مواطنيه على الكراهية العرقية .. كان حادثا من عشرات الحوادث اليومية التي كان النظام يهدف من ورائها إلى إشغال المواطنين عما يدور بالبلاد .. لم تدرك أجهزة قمع الطاغية أن هذا الحادث كان النقطة الأخيرة في كوب قد امتلأ عن آخره بالطغيان على مدى سنوات .. طبيعة الطغاة أنهم ماضون في طريقهم حتى النهاية لأنهم يشعرون بأنهم حطب الديمقراطية لو طبقوها ..

تجمع الكثير من مؤيدي الفس المذكور حول بيته وانضم إليهم عدة آلاف من الطلبة في صورة بدت على أنها عفوية ولكن الأعداد زادت .. أمر تشاوشيسكو قوات الأمن بفتح النار على المتظاهرين وكان ذلك بمثابة اشتعال عود كبريت في حقل جاف ..

في 17 ديسمبر انتقلت التظاهرات – التي بدأت عفوية وغير منظمة – إلى المدن المجاورة فأرسل تشاوشيسكو إليها المزيد من قوات الأمن وأمرهم بفتح النار بلا تمييز على كل من يتحرك في الشوارع وسقط أربعة آلاف قتيل من المتظاهرين ..

في 18 ديسمبر غادر تشاوشيسكو رومانيا في زيارة إلى إيران تاركا البلاد في يد زوجته وقادة الأجهزة الأمنية .. ظن الطاغية بغروره واستعلائه أن القوة النيرانية في أيدي قواته ستجبر المتظاهرين في النهاية على الهروب إلى منازلهم خاصة بعد أن تكدست جثث القتلى في الشوارع ..

كان عدد الضحايا في الشوارع سببا كافيا كي يستمر المتظاهرون حتى النهاية .. كان المقاومون يعلمون جيدا أن التراجع والعودة إلى المنازل يعني أن الشعب كله سيدفع الثمن لو فشلوا فوصلوا تحدى قوات الأمن ..

فشلت قوات أمن الطاغية في السيطرة على الموقف فانضم الكثير منهم بأسلحتهم إلى المتظاهرين وتم الاستيلاء على تيماشورا في 20 ديسمبر ومعها بعض المدن المجاورة وانتقلت التظاهرات إلى العاصمة ..

في مساء 20 ديسمبر عاد تشاوشيسكو من زيارته إلى إيران محاولا السيطرة على الموقف المتدهور في العاصمة حيث دعى فور عودته مؤيديه ومن خلال خطاب متلفز بالنزول في اليوم التالي إلى الميدان الجمهوري – ميدان الثورة الآن – حيث مقر الحزب الشيوعي الروماني من أجل إظهار التأييد له وللحزب الشيوعي الذي يقوده ..

في 21 ديسمبر استجاب مائة ألف من المواطنين وفي المساء خرج لهم تشاوشيسكو من شرفة المبنى الضخم الذي أثقل بناؤه ميزانية الدولة وأطل على الجموع المحتشدة على مرمى البصر في الميدان الفسيح وبدأ خطابه الذي نقله تلفاز البلاد على الهواء .. كانت المفاجأة الكبرى في انتظاره هناك ، أخذ الناس يقاطعونه ويهتفون تيماشورا ، تيماشورا ، تيماشورا .. اشتعل لهيب المتظاهرين وقطع التلفزيون إذاعة ما يجري واضطر تشاوشيسكو إلى مغادرة الشرفة ..

باتت الجموع المحتشدة ليلتها في الميدان الجمهوري الفسيح والمشرف على عدة شوارع حيث برد بوخارست القارس .. تضاعفت أعدادهم خلال الليل وتحول برد الشتاء في الميدان إلى لهيب من الحماس .. سرت بينهم شائعات أن تشاوشيسكو أمر بإعدام وزير دفاعه الجنرال فاسيل ميليا لرفضه الأوامر بإنزال الجيش إلى الشوارع ..

في صباح 22 ديسمبر خرج تشاوشيسكو مرة أخرى من شرفة مبنى الحزب الضخم المطل على الميدان الجمهوري محاولا في يأس واضح تهدئة المتظاهرين ، ككل الطغاة في لحظاتهم الأخيرة وعد الطاغية الجماهير الثائرة بتصحيح كل الأخطاء التي وقعت في عهده وبإجراء بعض الإصلاحات الضرورية ، زادت وعوده هياج المتظاهرين ، ووقعت الواقعة ..

أخذ الناس في الاستعداد لاقحام المبنى وهنا رفعت كل من قوات الأمن الغفيرة التي تحيط بالميدان وتلك التي تحيط بالمبنى من درجة استعدادها ووجهوا بنادقهم ناحية المتظاهرين حتى لا تغلت الأمور من أيديهم ..

انطلقت زخات الرصاص من قوات الأمن على المتظاهرين مع أول تحرك من جانبهم لاقتحام مبنى البرلمان .. سقط العشرات من القتلى ولكن الطوفان واصل طريقه إلى داخل البرلمان فانضم الكثير من قوات الأمن إلى المتظاهرين .. لقد كان زمن الوعود قد ولى وكان المتظاهرون يعلمون أن القتل في انتظارهم لو نجا تشاوشيسكو منهم هذه المرة ..

أسرع الدكتاتور بالصعود مع زوجته ليأخذها إلى سطح مبنى البرلمان ليستقل طائرته الخاصة التي جاء بها وحلق فوق المتظاهرين إلى مدينة سيمبولنج التي تبعد مائة كيلو متر عن العاصمة .. دار قتال شوارع في بوخارست بين قوات الحرس الجمهوري والقوات التي انضمت إلى الشعب وسقط فيه أكثر من ألف قتيل ..

اضطرت طائرة الطاغية إلى الهبوط في أحد الحقول وأخذ مع زوجته يتلفت حوله باحثاً عن مكان بين المزارع يختفي فيه .. ألقى بعض الفلاحين القبض عليهما وسلموهما إلى قيادة المتظاهرين .. عقدت محكمة عسكرية للطاغية ولزوجته وأعدما في 25 ديسمبر 1989 بتهمة القتل الجماعي مع بعض التهم الأخرى ..

لقد حكم تشاوشيسكو رومانيا على مدى ربع قرن ، تمكن خلالها وبمساعدة أجهزته القمعية من بث روح الخوف في جميع أفراد الشعب الروماني .. لقد أنشأ الطاغية العيادات النفسية لمعاقبة معارضييه بحجة أنهم مختلون عقلياً ويمثلون خطراً وتهديداً على أنفسهم وغيرهم من أفراد المجتمع ، لقد أمر الطاغية أن يتم إطعام بعض هؤلاء المعارضين من قبل الممرضات بزعم حمايتهم من أنفسهم إذا أمسكوا الملاعق في أيديهم ! ..

قدرت منظمة العفو الدولية عدد المعارضين الذين دخلوا تلك العيادات النفسية في مطلع ثمانينات القرن الماضي بـ 32 معارضاً ووصل الرقم إلى عدة مئات عند هلاك الطاغية.. كان هؤلاء المعارضون من خيرة أبناء رومانيا وأشدهم ثقافة وحبا لبلدهم ، ومن هؤلاء فاسيلي باراسكيف الذي يُعد من أشهر معارضي تشاوشيسكو .. لقد تركت تلك العيادات النفسية أثراً شديداً البؤس على أشخاص نازليها الذين شعروا بالخجل والكثير منهم يرفض حتى اليوم الحديث عما لاقوه داخل تلك العيادات..

لقد عرف الرومانيون - بعد رحيل الطاغية - أشياءً غالية لم تكن موجودة في عهده ، عرفوا معنى الحرية وتداول السلطة ، عرفوا عدم الخوف وعرفوا الإضراب عن العمل حتى تتحقق مطالب العاملين ، عرفوا كيف يختارون من يمثلهم لإدارة البلاد وطرد من لا يريدون ..

يوجد في رومانيا الآن حوالي 250 حزب سياسي وأقوام سبعة في البرلمان يبذلون الجهد كي ينالوا ثقة الشعب وإلا اختار غيرهم .. لقد تداول على السلطة الكثير من ممثلي الشعب منذ رحيل طاغيتهما البائد ، جاء أولاً بترو رومان ذلك الوسيم الذي عرفه العالم في أيام الثورة الأولى حيث أصبح رئيساً للوزراء حتى عام 1992 ..

لقد شهدت رومانيا منذ ذلك العام خمس انتخابات برلمانية كان أولها 1992 ثم 1996 ثم 2000 ورابعها كان في عام 2004 والتي فاز فيها زعيم المعارضة وعمدة بوخارست تريان باسيسكو بنسبة 52 % ، وآخرها في 6 ديسمبر 2009 والتي كانت عبارة عن جولة ثانية بين الرئيس باسيسكو ومنافسه الاشتراكي ميرسيا جيوانا وأسفرت عن فوز باسيسكو بنسبة 33 . 50 % بينما حصل جيوانا على نسبة 49.66% ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس - ميزوري - أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com